

الذات وديناميات الإقصاء والاعتراف في رواية منبوذو العصفير لإسماعيل أبرير

The Self and The Dynamics of Exclusion and Recognition in "The Outcast of Sparraows" by Ismail Abrir

نبيلة عنيني*

جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، nabilaaniki@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/12/30

تاريخ القبول: 2024/12/28

تاريخ الاستلام: 2024/10/09

Abstract:

The novel was an important outlet in the light of the crisis relationship between the self and the other and between the centre and the margin as it is one of the fertile narrative fields that contained these two binaries, which struggled to gain recognition or exclusion in the presence of the other. This latter, in turn, draws the vision through which the self can define its existence and belonging and create opportunities for coexistence and integration among multiple identities. The novel of "The Outcast of Sparraows " by Ismail Abrir is a good illustrator in this context. Based on our cultural critical reading, the current study attempts to shed light and snoop on one of the popular spaces, which is represented in the village of Al-Ain, through which the novelist drew us the dynamics of living with different identities and searching for belonging and inclusion in the characters of this space. On the other hand, we find the embodiment of images of excluding the other in another part of this virtual space, which Ismail Abrir established to be an exceptional space to draw his distinct narrative plan. What are, thereof, the representations of this self in drawing the threads of belonging and recognition in the face of the exclusion that surrounds it? To what extent could the writer draw the dynamics of this space identity through "The Outcast of the Sparrows?"

Keywords: Self, identity, the other, exclusion, and recognition

الملخص:

في ظل العلاقة المتأزمة بين الذات والآخر وبين المركز والهامش كانت الرواية وعاءً هاماً، وأحد الحقول السردية الخصبة التي احتوت هذه الثنائيات وهي تصارع من أجل نيل الاعتراف أو الإقصاء في ظل وجود هذا الآخر، الذي يشكل للذات مرآة لتحديد وجودها وانتمائها وخلق فرص للتعايش والاندماج بين هويات متعددة. وهذا ما قدمته لنا رواية "منبوذو العصفير" لإسماعيل أبرير انطلاقاً من هذا سنحاول في هذه القراءة النقدية الثقافية تسليط الضوء والتلصص على أحد الفضاءات الشعبية والتي تتمثل في قرية العين التي رسم لنا من خلالها الروائي ديناميات العيش بهويات مختلفة، وصور البحث عن الانتماء والاحتواء في شخصيات هذا الفضاء في حين نجد تجسيدا لصور الإقصاء للآخر في جهة أخرى من هذا الفضاء الافتراضي، الذي أقامه "إسماعيل أبرير" حتى يكون فضاءً استثنائياً لرسم خطته السردية المتميزة. فما هي تمثيلات هذه الذات في رسم خيوط الانتماء والاعتراف في مواجهة الإقصاء الذي يحيط بها؟ وإلى أي مدى استطاع الكاتب أن يرسم ديناميات هذا الفضاء الهوياتي من خلال منبوذو العصفير؟

الكلمات المفتاحية: الذات والهوية، الآخر، الإقصاء والاعتراف.

* نبيلة عنيني.

مقدمة:

أبداع الروائي الجزائري المعاصر نصوصا سردية مفعمة بقيم ثقافية، تحوي العلاقة بين الأنا والآخر وبين المركز والهامش وبين الرجل والمرأة، إذ خلق إبداعا سرديا فيه الكثير من صور الثورة والمواجهة لكل سلطة تحد من حرية الذات حال سعيها لتحقيق الاعتراف بها والحضور في المجتمع والتفاعل داخله، ثورة لنيل الاعتراف ونيل الاقصاء والتهميش في ظل وجود هذا الآخر، الذي شكل للذات مرآة لتحديد وجودها وانتمائها وخلق فرص التعايش والاندماج بين الهويات المتعددة، فكانت رواية "منبوذو العصافير" "الإسماعيل يبرير" تمثيلا سرديا مكثفا لفضاء العين إحدى الفضاءات الشعبية التي قدمت صور الاعتراف والاحتواء من جهة، ومن جهة أخرى معاناة الذات من الإقصاء والتهميش، إذ صوّر الروائي ديناميات العيش بهويات مختلفة؛ حيث تسعى الذات إلى الاحتواء والانتماء بعدما طُبقت عليها مختلف صور الإقصاء المادي والمعنوي، وفي هذا الفضاء الافتراضي الاستثنائي بث "يبرير" مادته السردية لتتشارك الشخصيات رسم خيوطها بين أحيائها الشعبية ومقاهيها، أين تصارع من أجل نيل الاعتراف والقبول وتحقيق الانتماء واستعادة الذات لهويتها. وفي هذا الفضاء الذي جمع هويات متعددة، سنحاول التلصص على يومياتهم وتنقلاتهم وسعيهم لرسم قيم الاعتراف في مواجهة الآخر المختلف عنهم دينيا وعرقا وثقافة، وبيان كيفية استعادته لذاته بعد التهميش في بلدة العين (وهي بلدة في إحدى المدن الداخلية الجزائرية التي عاشت هذه الأحداث الافتراضية منذ ما قبل الاستقلال إلى غاية سنة 2014؛ إذ تنتفي البطولة وتتقاسم الشخصيات الأدوار في لعبة سردية أين تبدأ الرواية بمشروع كتابة لـ "مارك الثاني" حفيد "مارك الألماني" الذي أتى إلى العين واندمج فيها، فلا ندري هل ذلك المشروع هو الرواية، التي بين أيدينا أم هي رواية أخرى لم تكتمل بعد، إلا أن "يبرير" أراد أن يشير إلى فكرة هامة وهي أهمية الكتابة في حياتنا؛ فهي حسب تبرير لما لم يبر بعد؛ وهي أي الكتابة... تحدّ وأداة يتعافى بها المرء، وكذلك الذين يحركون أحداث الرواية لا يؤمنون أنهم يتحركون ويشاركون في سيرورة الأحداث، حتى أبطال الرواية الذين نراهم يعيشون فيها لا يؤمنون بتلك الحياة.

1. تحديد الجهاز المفاهيمي:

1.1 مفهوم الاعتراف:

عُرِّف مفهوم الاعتراف أوّل ما عُرِّف في الدراسات الفلسفية والسياسية والأخلاقية، ليلقى بعدها رواجاً في الحقول النقدية، ومن أبرز منظّريه "بول ريكور Paul Ricoeur" وذلك من خلال كتابه "مسار الاعتراف"، الذي استلهم فيه هو بدوره أفكار ممثل الجيل الثالث للنظرية النقدية بمدرسة فرانكفورت "أكسل هونيث" Axel Honneth خصوصا ما جاء منها ضمن كتاب "الصراع من أجل الاعتراف"، حيث كان إسهامه في هذا الحقل كبيرا

وواسعا، ويمكن القول: أنه قدم أساسا لهذا المفهوم؛ إذ يقرّ "ريكور" بأهمية بحوث "هونيت" في مساره النقدي بقوله «إنني أقدم قراءتي مصحّوًا بمدربي تامينيو وهونيت». وقد استفاد "بول ريكور" أيضًا من كتابات "هيجل" في تحديد مفهوم الاعتراف «إذ يرى أنّ هيجل ربط مفهوم الاعتراف بالإرادة، كما حلل علاقة الحب بين الرجل والمرأة، وبين الوالدين والأبناء أو العائلة وهو الموضوع الذي بينه هونيت وجعله ركنا من أركان نموذج الثلاثي للاعتراف» (دلوش و عبد اللاوي ، 2022، صفحة 28)، ولتحديد مفهوم الاعتراف لابد من الوقوف أولا عند "هيجل" الذي يرى أنّ «هوية الفرد ووجوده مرهون بمدى ارتباطه العضوي والمتكامل بالمجتمع الذي يعيش فيه، والذي يأخذ فيه أدواره الاجتماعية والسياسية، وبالتالي فإنّ اكتماله يتوقف حتما على هذا الارتباط والانسجام والاعتراف المتبادل، وذلك أنّ الذات لا تستغني عن التفاعل والانفتاح على الغير، ولا تبقى في حالة انغلاق على ذاتها» (دلوش و عبد اللاوي ، 2022، صفحة 28)

ترى الذات في هذا الآخر شبيها لها ومحددا في الوقت نفسه لوجودها، و«يشكل الاعتراف بالآخر الطريقة المثلى للتعرف على الذات والاعتراف بها، والاعتراف بالذات وحده يسمح بولوج طريق قبول الآخر، وقبول الآخر وحده السبيل لتحقيق التعايش الاجتماعي، وأنّ الفرد لا يمكنه أن يدرك ذاته دون أن يمر أولا بالغير، يمر الآخر باعتباره فردا له خصوصيته وتميزه» (بولنير، 2010، صفحة 104)، ولهذا يرتبط مفهوم الاعتراف ارتباطًا ضروريًا بالهوية «سواء تعلق الأمر بالاعتراف بما هو تعيين وتحديد لشيء على وجه العموم، أو تعلق الأمر بالاعتراف بما هو شهادة» (بغورة، 2012، صفحة 46) أي أنّ تعيين الشيء وإدراكه هو إدراك للذات والاعتراف بها، وتحديد موقعها أي تحديد معالم وجودها.

والاعتراف عند "بول ريكور" يتراوح بين عدة معان منها: «ما يقف على مفهوم الاعتراف بوصفه تعيينًا وتحديدًا لهوية الشيء Identification» (بغورة، 2012، صفحة 33)؛ حيث أن «الاعتراف لا يظهر إلّا في صورة المواجهة والصراع ضد حالات وضعيات الإنكار» (بولنير، 2010، صفحة 33)، وفي مفهوم آخر يرى «أنّ الاعتراف بوصفه اعترافا بذات النفس se reconaitre» (بولنير، 2010، صفحة 35)؛ نفهم مما جاء به "ريكور" أنّ الاعتراف تتجلى صورته ومفهومه بشكل واضح عند مواجهة هذا الآخر؛ المواجهة للذات، والذي يكون في صراع معها أو رافض أو ناكر لها، وكذلك إدراك هذا الآخر في حد ذاته. وفي كتابه "الاعتراف من أجل مفهوم جديد"، يرى "الزاوي بغورة" أنّ الأصول الفلسفية للاعتراف عند "بول ريكور" «تتجلى في تأكيده على الاعتراف بما هو تعيين وتحديد الاعتراف بما هو اعتراف بذات النفس وثبت للهوية، والاعتراف بالفاعل والقادر والمستطيع وبالعلاقته بالقدرات والممارسات، وأخيرا بجدلية الاعتراف المتبادل بين الذات والآخر أو بين الهوية الغيرية» (بغورة، 2012، الصفحات 41-42) نفهم من هذا القول: "أنّ الاعتراف يشمل تعريف الذات بنفسها وتعيينها وتحديدتها انطلاقًا من قدراتها وممارساتها، أي في إطار وجودها الفعلي الذي نسعى لإبرازه، ومن جهة أخرى يتحقق الاعتراف انطلاقًا من الاعتراف بالآخر واكتشاف حق وجوده، فالآخر مرآة لهذا الأنا حتى يعرف ويقبل.

والرغبة في الاعتراف عند "بول ريكور" «تتوقف على الحاجة إلى تقدير الذات واحترام الغير؛ فهذه الجدلية القائمة بين الذات والغير أو (الهوية والغيرية)، هي جدلية الاعتراف المتبادل وكذلك هو صراع بين الذات مع نفسها ومع الغير (الآخر) من أجل انتزاع الاعتراف ورفض العنف والتخاضع عبر طريق الثوابت الأخلاقية كالحب والاحترام والتقدير والعرفان والشكر والامتنان» (دلوش و عبد اللاوي ، 2022، صفحة 33)، فالذات تسعى من أجل تحقيق الاعتراف والقبول مع نفسها أولاً ثم مع الآخر أو الغير، وبذلك نفي كل تجاهل وازدراء تتعرض له من الآخر مقابل وجود فرصة لانتزاع هذا الاعتراف عن طريق الحب والاحترام والتقدير الذي يراه "بول ريكور" عبارة عن ثوابت أخلاقية وهي ثوابت قام عليها مفهوم الاعتراف عند "أكسل هونيت" الذي يمثل الاعتراف عنده «الاحترام المتبادل للمكانة المتساوية والفريدة للآخرين» (بولنير، 2010، صفحة 110)، وأكد "هونيت" أنّ الصراع من أجل الاعتراف «يعني بالدرجة الأولى إرادة الوجود التي تكشف وتشجب الأمراض الاجتماعية والمفارقات الناشئة في المجتمعات الرأسمالية الغربية» (دلوش و عبد اللاوي ، 2022، صفحة 33)، وهذا من خلال مقاومة الذات لكل الأطراف الخارجية ، التي تعيق عملية الاعتراف ومنها المجتمع وكل مظاهر الحياة ، التي كرستها الإمبريالية الغربية التي تحد من حرية الفرد وترمي إلى إقصائه ونبذه. فالاعتراف أيضاً هو مواجهة الآخر الذي يحدد كيان الذات ووجودها وانتماءها، وهو قبل كل شيء إرادة الوجود وإرادة الاعتراف المتبادل وقد قدم "هونيت" مصطلحاً آخر اشتغل عليه وهو الاعتراف التداوتي الذي يعتبره مؤسساً للهوية «إذ لا يمكن تحقيق ذاتنا إلا من خلال الاعتراف بالآخر من خلال علاقاتنا به» (بولنير، 2010، صفحة 108).

انطلاقاً من آراء "هونيت" نجد أنّ الاعتراف لا يقوم على الذات لوحدها أي الاعتراف بنفسها أو إرادتها المواجهة، ولكن وجود هذا الآخر الذي كنا نراه غريباً نقبضاً للذات مع "هونيت"، هو الذي يصنع هذه الذات، فوجودها مرهون بالآخر وعلاقتها به، وأن يقبل الآخر الاعتراف بها هو اعتراف بوجودها وهويتها، فالذات لا تستغني عن الانفتاح والتفاعل مع الغير (الآخر)، وقد أقام "هونيت" مفهوم الاعتراف على نموذج ثلاثي الأطراف هو الحب والحق القانوني والتضامن، ويعرف "هونيت" الحب بأنه «مجموعة العلاقات الأولية الإيروسية والأسرية بالإضافة إلى علاقات الصداقة الموجودة بين الناس وتعتبر علاقة الطفل بأمه أولى مستويات الاعتراف المتبادل... الأم تمثل النموذج الأول للاعتراف المتبادل أو ما يسميه التداوتي الأول»، ثم «الحق الذي يمثل حسب هونيت الشكل الثاني الذي منه الاعتراف المتبادل وبين الذات فالاعتراف القانوني هو الذي يضمن حرية الأفراد واستقلالهم الذاتي» (بولنير، 2010، صفحة 109). أمّا التضامن فهو يرى بأنه: «الشكل الثالث الذي يسمح للأفراد تحقيق ذواتهم من خلال علاقات الاعتراف المتبادلة» (بولنير، 2010، صفحة 110) فحسب هذا الأخير الحب هو الصورة الأولى للاعتراف؛ إذ يربط الفرد بالجماعة التي ينتمي إليها، وخاصة العائلة مما يزيد من ثقته بنفسه، والحق يحقق احترام الذات في حين التضامن هو أساس تقدير الذات، ومنه نخلص إلى أنّ الاعتراف هو ثقة بالنفس في مواجهة الغير واحترام للذات وتقدير لها.

وإذا قلنا الاعتراف هو خطوة نحو تقدير الذات واحترامها ومنها تقديم حقها في الوجود، فإنّ هذا المفهوم _أي الاعتراف_ قد أطلق على أقلية عانت التهميش وغياب الاعتراف والتقدير «وأنّ الإقرار بوجود علاقة ما بين وضعية

الهيمنة أو السيطرة والمجموعة الاجتماعية المعطاة ، التي يصطلح عليها بالأقلية التي تعاني من غياب الاعتراف بها، أي غياب الاعتراف بهويتها وتقديرها من قبل الآخرين أو ممن يعتبرون أغلبية، ومن هنا فإنّ الأقلية تنتمي إلى ما يسميه أكسل هونيت الوعي بالظلم «Conscienced'injustice» (بغورة، 2012، صفحة 15). فالاعتراف مفهوم أقيم اهتمامه بحل الصراعات التي طالت الفئات المهمشة والمبعدة والمقصية التي تسعى جاهدة لنيل الاعتراف بهويتها وبناء تاريخها.

فإذا كان الاعتراف المتبادل هو الغاية من وجود الناس وتعايشهم واشتراكهم في الحياة، فإن ما تسعى إليه الهيمنة الإمبريالية، هو تجاهل الأقلية من الناس وازدراؤهم وفرض صور العنف والتهميش والإقصاء عليهم؛ مما يؤدي إلى غياب التوافق والتقدير، وتجاهل الآخر الذي هو تغيب لهذه الذات وتغيب لهويتها.

2.1 مفهوم الإقصاء:

يقصد بالإقصاء تلك العملية التي يتم بها تهमيش الأفراد أو التخلص من الفئة غير المرغوب فيها، وذلك بتشويه صورة الآخر بغية إقصائه؛ أي وجود فئة سميت نفسها بالمركز، هذا الأخير الذي كرس صور الإقصاء للأطراف حيث لا ترى إلا نفسها. وبالعودة الى مفهوم الإقصاء نجده يتداخل مع مصطلح المهمش؛ إذ يصعب التفريق بين هذين المصطلحين من حيث الدلالة، فكلما حاولنا فصلهما ، وجدنا مفهوم الإقصاء يتضمن معنى المهمش وكثير من الباحثين يتناولون المصطلحين معا للدلالة على مفهوم واحد، وهو أن التهميش يجمع كل أنواع المنبوذين و المقصيين من قبل جماعة أو مجتمع حيث «يحيل معنى المنبوذ و المقصي في فهم الكثير من المفكرين إلى الآخر ، لذا تتداخل المفاهيم إذ كان هذا الآخر لا يعني الغريب لغة و حضارة و فكريا، فالآخر هو غير الذات سواء كانت تلك الذات فردية أو جماعية» (الشيخ، 2018، صفحة 29)، و قد شغل مفهوم الآخر حيزا كبيرا في الدراسات الثقافية مؤخرا، وخاصة ميلاد الفكر المضاد أو الخطاب ما بعد الكولونيالي، إذ أصبح هذا الآخر هو المختلف عن الذات والمغاير لها في ثقافتها وهوياتها، وتعدى ذلك إلى أن أصبح الآخر هو الدوني والمهمش والمقصي وغير المرغوب فيه في الفضاء الاجتماعي والثقافي والسياسي للذات التي ترى أنها محولة لإقصاء الآخر من فضائها، و«الذات المهمشة ذات مقصاه من المركز ومن ثم فإن العلاقة بينها وبين المهيمن علي المركز علاقة قوامها الصراع ،ومن هنا تتراءى لنا الصلة الوثيقة بين الإقصاء والتهميش، فالمهيمن صاحب نسق قيمى يتحدد موقع بقية الذوات الاجتماعية الأخرى منه، مما يعني أن درجة الهامشية لدى المهيمن عليه مرتبطة بمدى نجاح المهيمن في إقصائه من النسق كليا أو جزئيا» (الزعفوري، صفحة 36) فالمهيمن هو كل منبوذ ومقصي متمرد متجاوز لسلطة المركز المهيمنة. وتعددت صور المهمش فكان الحي البعيد عن المدينة هامشا والغريب واللاجئ والمنفي هامشا، وكل من نشأ في العتمة بعيدا عن الأضواء هو هامش، هذه الأضواء هي أنساق قيمية صنعتها المؤسسة لتثير ما تريد وتقصي من يخرج عن سلطتها، فإذا كان الهامش في الكتاب هو الجانب المتروك أو الحيز الذي يجاور المتن فإن الهامش في المجتمع هو من صفعته المؤسسة بسلطتها وأقصي حضوره من عالم النخبة، كما كتم صوته و غُيِّب

دوره فأصبح يعيش تابعا لها. وهذا مرتبط بمدى نجاح المهيمين في إقصائه، فالمقصي المهمش «يعيش عالما مستقلا عن عالم النخب» (اليقوي و الطحطاح ، 2019، صفحة 20) حيث مُنِع من ممارسة حضوره في الساحة الثقافية وحرّم من حقه في الاعتراف الذاتي.

وترى الباحثة الكويتية "سعاد العنزي" أن «المهمش بشكل عام هو من يقصى متعمد من نسق إنساني اجتماعي وثقافي غالب مهيم على الفضاء المكاني والزمني الذي يتحرك فيه الفرد» (العنزي، 2013) وتضيف الباحثة أن الإقصاء والتهميش «يظهر في لب كل مسائل الصراع الاجتماعي، التي تختلف تسمياتها باختلاف مظاهرها و تمثالاتها» (العنزي، 2013). من خلال ما تقدم نلاحظ أن مفهوم الإقصاء مرتبط دوماً بسلطة مهيمنة وفئة مهمشة أقصت هذه السلطة، أي أن هذه الفئات المقصية تعيش تحت هيمنة نخبوية تسعى لقمع أفكارها ومن ثم منعها من ممارسة حياتها وبذلك تحد من حريتها في الاحتفاء بذاتها وسعيها للاعتراف بنفسها مما يمنحها القدرة على تقبل الآخر أو الاعتراف المتبادل أي قبول الآخر المغاير لنا والتعامل معه باعتباره ذاتا إنسانية قابلة للتواصل والتفاهم.

إن انغلاق الذات على نفسها وإحساسها بالتميز والفوقية، هو ما أسهم بشكل كبير في شيوع مفهوم الإقصاء الذي ينهض على نبذ الآخر وعدم الاعتراف به و بهويته، والنظر إليه بدونية واحتقار، فيصبح هذا الآخر بمثابة عدو للأنا يجب محاربته و النيل منه، أو إقصاؤه من محيطها الاجتماعي والفكري والثقافي، مما يوسع الهوة بين هذه الثنائية الهامة (الأنا و الآخر)، وذلك أيضا يجعل الأنا الفوقية المتعالية ترى في الآخر جحيما كما أشار الى ذلك "سارتر" في إحدى مقولاته وهو خطاب يحمل بين طياته إقصاء الآخر، في حين كان لابد للذات من مراجعة نفسها كما رأينا قبلا في مفهوم الاعتراف، وبذلك معرفة الذات لنفسها يدفعها إلى معرفة الآخر والقبول به، لأن القبول والتفاعل مع الآخر هو بمثابة إغناء للذات .

2. الذات وسردية الاعتراف:

يعد المتن الروائي الجزائري الوجه الحقيقي للمجتمع؛ إذ يصور سلوكاته وأحواله وتناقضاته، وهكذا أضحت الرواية مساهمة للتحويلات الثقافية الطارئة، فالتسعت رؤية الأديب الجزائري الذي خاض غمار هذا الفن وعُدَّت تجربته «تجربة أدبية شيقة يعبر عنها بأسلوب النثر سردا، أو حوارا من خلال تصوير حياة مجموعة أفراد أو شخصيات يتمركزون في إطار نسق اجتماعي محدد الزمان ، ولها امتداد كمي معين كونها رواية جزائرية» (المسوي، 1988، صفحة 34)، وهذا ما لمسناه وسنحاول الخوض فيه من خلال رواية "منبوذو العصفير" للروائي الجزائري "إسماعيل بيرير" التي تدور أحداثها في بلدة العين وهو فضاء للهويات المختلفة والثقافات المتعددة في صورة للحب الإنساني والحماية والصداقة بغض النظر عن أصل الشخصيات وعرقها ودينها، وبهذا ارتقت هذه الشخصيات بهويتها إلى سماء التوافق والقبول والاعتراف الذي عنوانه الحب وفيه تذوب الهويات والذوات، فالحب «شفاء للقلوب التعيسة وإن العاشق بتفانيه وتضحيته وإيثاره، إنما يضع حدا للأناية وتضخيم الأنا، إنه يؤسس لهوية جديدة تتغنى بالإنسان» (بيرير، 2019، صفحة 109). لقد حاول الروائي من

خلال هذا المتن، أن يرسل رسائل مشفرة عن دور الحب في رسم معالم الحياة بين طرفين متصارعين، أراد الروائي أن يؤكد على أن تقارب الشعوب وتعايشها لا تحكمه حدود سياسية وأمور فوقية غلّيا ، بقدر ما يحكمها سلطان القلب الذي يقرب المسافات بين الشعوب ويخلد الحكايات والقصص، وحده "الوحي" وهو إحدى الشخصيات التي وضعها "إسماعيل يبرير" بصورة خيط سردي محكم- قد ساهم بشكل كبير في سيرورة الأحداث فهو لا يلقي للفوارق والاختلافات بالا، عَشِقَ امرأة مجهولة واكتفى بعشقه مستمدا وجوده من حبها إذ يقول وهو علي فراش الموت: «الحمد لله لقد خلدت في قلب صادق وتذوقت روحا طيبة مهما كنت، وكان دينك أو لونك أنت أصيلة وحقيقية والباقي كذب وتوهم» (يرير، 2019، صفحة 73). وحده الوحي لا يعترف بالحدود بين الهويات وينتشي حبا ونقاءً لأن الاعتراف بالحب هو اعتراف بالذات أولا، ثم اعتراف بالآخر الذي يحدد وجودنا. هذا الآخر الذي تجسد في ليلي اليهودية حبيبة الوحي التي ارتبطت بالعين واختارت أن تكون عربية في فضاء العين الذي اختارته وطنا لها .

لقد أقام الوحي نموذجاً للقبول والاحتواء والانتماء والاعتراف بالآخر على أساس أفعاله ومعاشرته له لا على أساس دينه وعرقه وماضيه «وحده الوحي لا يعترف بالهويات لا يسأل الناس من أين و الى أين ولا يهتم بالدم الذي يجري في العروق وحده يعتقد أن الإنسان بروحه وقلبه» (يرير، 2019، صفحة 77) . فقد كان همزة وصل بين الشخصيات المختلفة تجتمع في كوخه بعيدة عن كل الانتماءات المختلفة.

ينظر "يرير" لهذا الاحتواء وهذا التنوع الثقافي على أنه نتاج حتمي وسط وطن مستعمر يحوي ثقافات متعددة ومختلفة ودخيلة، كونه كأفراد ضمن جماعة واحدة امتزجت مع الثقافة المحلية وانتفت الحدود فلم يعد الآخر مرفوضا ومنبوذا بل وجوده من وجود الذات؛ أي تجاوز ذلك النمط الرفض للآخر المغاير للذات، بل سعى إلى إحداث التواصل واللقاء بين الهويات المختلفة تحت لواء الحب ، الذي تذوب فيه الأعراف والهويات فبعدها كانت صورة اليهودي في المخيال العربي لصيقة بالكذب والاحتيايل والظلم والقتل، نجده في رواية "منبوذو العصافير" رمزا للحب والحكمة والقبول بالآخر الغريب، وهو مسعى الروائي لتكريس مبدأ التعايش، وهذه ليلي اليهودية ، التي وصفها الوحي بأنها أجمل عجوز علي الأرض، حين وفاتها شاع الحزن في فضاء العين ، ليلي والوحي قدما نموذجا للاعتراف الذاتي الذي يقابله الاعتراف المتبادل: أي إدراك الذات لذاتها وإدراكها للآخر.

تمثل الاعتراف بالآخر في الرواية على شكل اختراق لكيان الذات الجزائرية ، حيث انتفت الحدود بين مختلف الهويات المتصارعة اليهودية والفرنسية، فنتج جيل هجين هو جيل وُلد من رحم الاعتراف بالآخر المختلف عنها وقبوله بينهم، هذه خديجة جزائرية من العين احتضنت "مارك الألماني" الغريب عنها رغم جهلها بأصله ونسبه وانتمائه بدافع الحب الإنساني، ودفعته إلى أن يوجد لنفسه هوية جزائرية في ثقافته ولباسه، واندمج كلياً وسط العين ناسياً ماضيه الذي أصبح يتنصل منه وتنكر لكل شيء يُذكره به حتى زوجته أم أولاده كان مارك " قد انخرط في هويته الجديدة" (يرير، 2019، صفحة 16) حيث «أسلم مارك الجد في مسجد الحي الأول في المدينة و أقيم له حفل ترحيبي" نال اعتراف أهل العلم و قبول مارك الألماني بالرغم من اختلافه عنه وجهلهم بأصله إلا أنه أصبح منهم فب" الرغم أن لغته غريبة إلا

أنه تواصل بشكل مقبول مع محيطه الجديد، و خلال ثلاثة أشهر أقيم حفل زفافه، و صار اسمه مالكا، هكذا قضى اللام العربي على الراء الألمانية التزم الصلاة وصار يعتزم عمامة في بعض الوقت وخلال سنوات قليلة تحول إلى رجل من القوم يحمل عصا» (بيرير، 2019، صفحة 16). وصار يحمل لسانا عربيا لا يميزه شيء عن أهل المنطقة فقد «أصبح مالك يتعاطى تبغ الشمة ويلف سجائر السوفي، يحمل مسبحة ويشرب القهوة المختلطة وعليها عود الشيخ ويردد عبارات أصيلة تزرعه في عرش أولاد الشرقي» (بيرير، 2019، صفحة 17)، كل هذه التيمات هي تيمات لصيقة بالهوية الجزائرية لم يستحضرها الروائي هنا عبثا، إنما حضورها كان للتأكيد علي التغيير الذي لمس الشخصية الدخيلة علي البلدة بمجرد اندماجه فيها والقبول الذي لقاءه وسطها، احتضان خديجة لمارك و احتواؤها له يأخذنا للحديث عن تصور الغرب للشرقي المتعجرف الدولي الذي تحدث عنه "إدوارد سعيد" في أغلب كتاباته، وخاصة في مؤلفه "الاستشراق" أين درس هذه الثنائية وتفحص نظرة الغرب للذات الشرقية فوجد «أن الشرق في إنشائه لمفهوم الغرب كان أقل ابتعاد عن حداثيات الواقع وأقل ابتعاد عن وقائع التاريخ وأكثر موضوعية من شطحات بعض الرحالة الأوروبيين» (الحلاق، 1997، صفحة 33). إلا أن شخصية خديجة قدمت نموذجاً شرقياً مغايراً لما يتصوره الغرب عن الأنا الشرقية، فالحب الذي جمع بينهما هو من أساسيات مفهوم الاعتراف، فالحب كافر بالأديان لا يعرف حدودا إلا دير القلوب، لقد ترك هذا الأخير دينه لأجلها وتنفس الكافي ربيكا اليهودية دون أن يلزمها ترك دينها ومعتقداتها إذ تقول "ربيكا": «لقد اخترت الكافي وطنا» (بيرير، 2019، صفحة 77)، وإن تعددت الأسماء التي أطلقت عليها فهي الفتاة اليهودية ثم زوينة زوجة الكافي سيد العين، ثم ليلي مجنونة الوهي فبقيت «السيدة العاشقة هي المعني الحقيقي لبيت الكافي فبلا ليلي لا يكون بيت الكافي ولا بلدة باب العين ولا حكاية» (بيرير، 2019، صفحة 91)؛ إذ عنون الروائي فصلا باسمها مجنون ليلي، لقد أسست ربيكا في فضاء العين هويةً جديدة جعلت منها سيدة العين، هذا الفضاء الذي أصبح تاريخها وانتماها؛ حيث لم يذكر زوجها مكان مجيئها، ولم يذكر يوما أصلها وفصلها فقد ظل وجودها غامضا، ورفض الكافي زوجها التصريح عن هويتها الحقيقية، فالهوية ليست كينونة ثابتة بل هي شيء يُصنع حسب الظروف والأحداث والثقافات. هذا التقارب والألفة الذي جمع بينهما منعه من ذكر أصلها «فهي من وادي النار وعين الفرحة ومن حدة الروح كلها بلدان زوينة المحتملة» (بيرير، 2019، صفحة 77)؛ تكتم الكافي عن أصولها اليهودية ورفض الأسئلة التي تدور حول هويتها، أمر تستدعيه العلاقة التي جمعت الجزائري بالآخر اليهودي، فهو آخر مرفوض في العرف الجزائري والرواية هي تخليد لذلك وتصوير للعقيلة الجزائرية فلن يُقبل الآخر اليهودي مهما كانت أخلاقه، لم يُشعر الكافي ربيكا باغترابها عن الوطن وكان دوما يشعرها بأنها في وطنها وبين أهلها، إلا أن ابنها محسن عاش اضطرابا وصراعا داخلياً عندما عرف بهويتها، انتكس الرجل حيث زعزعت الجوهر المرأة العشيقة ثقته ثم راحت تواجهه «أردت أن تعرف أن الناس سواسية، الجميع متشابهون والاختلاف في اللباس والمظهر» (بيرير، 2019، صفحة 32). لقد مثلت البلدة فضاءً للحب والأمان والسلم (مارك، ربيكا، سيمون) تلقتهم الأقدار ليكونوا من أهل العين أرادوا الحب والحوار والتعايش بعيدا عن الحرب والكره، فوجدوا السعادة والانسجام الذي جمعهم بأناس في فضاء واحد بعيداً عن الصدام والقتال، فأحيانا لا يهم الدين والعرق أو الأصل الذي تنتمي إليه الذوات بقدر ما يوفره الفضاء من فرص للقاء والحماية. فمع الحب تذوب

الحدود وتتمازج إلى حد القبول بهذا الدخيل رافضا لأيّ اختلاف في سردية أقل ما يقال عنها أنها سرديات للاعتراف والاحتفاء والتقدير والاحتواء.

3. وهم المطابقة وإقصاء الذات:

تشكل فضاء "منبوذو العصافير" من عالمين مختلفين أو صورتين مختلفتين لشخصيات عديدة ومتعددة، هو فضاء هويّاتي بامتياز أين تتصارع الهويات فيه نحو التأصيل والبقاء . حيث تشكل جيلٌ أوّل قدّم لنا نموذج الاعتراف الذي يحكمه الحب وتقدير الذات ، في صورة رجال "العين" الذين يتزوجون من نساء مختلفات عنهم ديناً وانتماءً ، يقيمون بالآ، منهم الكافي ابن مارك الذي تزوج سيمون الفرنسية وإسماعيل الفلسطيني وجيل ثاني قدم نموذجاً للإقصاء والرفض لهذا الآخر الذي ارتبط باسمه، وتغذت هويته منه وبعد معرفته عاش الضياع والتمزق والرفض لهذا الماضي الذي يشكل معالم هويته ووجوده، إذ عاشت هذه الشخصيات انتكاساً عاطفياً مما زاد من تعصبه لهذا الآخر المختلف عنه وحاول نبذه وإقصاءه من حيزه الاجتماعي. ومن هذا المنطلق فالإقصاء هو السعي إلى إماتة الآخر أو دفعه إلى الضياع وأحياناً منافسته، وعندما نقول إقصاء نعني: عدم الاعتراف بالآخر مهما كانت منزلته عند الذات، ومنعه من الحق في الحياة والوجود؛ أي غياب الحرية الذاتية وهو ما عاشته سيمون الفرنسية «هي ذاتها عربية العين المرأة التي أحبت ثائراً وتجنّدت مع الثوار والتي عاشت قسوة الحياة دون أن تفقد ابتسامتها» (بيرير، 2019، صفحة 136). فقد جاءت إلى الجزائر وراء رجل جزائري تزوجها ثم رحل عنها لتدخل في علاقة مع ضابط فرنسي ليس حبا فيه وإنما انتقاماً لحبيبها الذي كان بالنسبة لها «آلهة ومذهبا ودينا» (بيرير، 2019، صفحة 66)، فخانت فرنسا ووطنها لصالح الثوار الجزائريين بعد أن «وجدت نفسها بين قومها وقوم حبيبها» (بيرير، 2019، صفحة 66)، لكنها لم تنعم بالحياة التي أرادت، فبعد الاستقلال وعودتها من الجبل تحرش بها زميلها ، وعندما رفضت اتهامها بتهمة سُجنّت لأجلها ست سنوات حيث «كان الجميع يعرفون أنها بريئة لكن شعور بالرفض نحوها و كونها امرأة فرنسية جعل المحكمة تصدر حكماً بالسجن» (بيرير، 2019، صفحة 129) رغم خدمتها ومساندتها لهم؛ فذنبها أنها تمثل الآخر العدو المرفوض. لقد عاشت سيمون منبوزة من طرف أهل العين وهي العاهرة في نظرهم، عاشت مقصاه من مجتمع جعلته وطنها ووطن ابنتها الجوهر التي كانت تدافع عنها بقولها: «لم تكن أُمّي بائعة هوى» (بيرير، 2019، صفحة 66) بل «راقني أن تكون لي أما بذلك التاريخ وتلك الخبرة» (بيرير، 2019، صفحة 65) فأهل العين الذين رفضوها هم الذين رفضوا ابنتها، وهم أنفسهم أهلها وأهل والدها .

الجوهر العاهرة أيضاً في نظر أهل العين هي ابنة سيدة بلا هوية بلا أب، إذ تسأل أمها «لما أحببت عربياً...ماذا نفعل بالوطن إذا كنا بلا أهل. وما ذا نفعل بالأهل إذا لم نعر على وطن» (بيرير، 2019، صفحة 135) فالوطن الذي هم فيه ينكر وجودها وانتماءها له؛ لقد همشها وجعلها خارج هذا الفضاء وكان السكان يرون «الجوهر هي الشبح الذي انتقل اسمه في كل الأرجاء... لم يعرف أحد من سكان البلدة الجوهر، كانت حكاية فقط تتسلل في المساءات إلى أفواه النساء ينطقون باسمها سرّاً ولا يجروون على نطق اسمها علناً... الجوهر سيرة مشوهة تحكي أنّها بائعة هوى أُلقت عن الأمر

لاحقا» (بيرير، 2019، صفحة 58). هذه الصفات المشبوهة التي لحقت بالجواهر وأمها هي التي جعلتها مهمشة ومنبوذة في فترة من الفترات، إقصاؤها من طرف النسوة، هو بمثابة إبعادها عن طريقهن، إذ كن يرين فيها المنافسة بأنوثتها التي تغوي رجالهن، فكان اسم العاهرة هو إقصاء من عالم النساء الشريفات حتى لا تراحمهن في رجالهن، وتهميش لشرفها وهويتها وانتمائها العربي، فهي أيضا ابنة العين لكنهن لم يكن يرين ذلك، فإذا عدنا إلى هوية الأب نعني الاعتراف، وإذا نظرنا إلى الأم (أي أم الجواهر)، وجدنا الإقصاء لأنّ الأم سيمون عدت (رومية) مجهولة، لكن الجواهر عاشت بمبدأ أنّ الأم هي القاعدة التي تقف عليها وليس الأب.

لم تُقص الجواهر ولم تهمش من عالمها الأنثوي فقط، لقد كان ماضي أمها واسمها يقف حاجزا أمام من يتقرب إليها، فهذا محسن سيد من أسياذ المنطقة عشقها، لكن نظرة الشك والريب فيها لم تفارقه كان يرى أنه طاهر وهي ستؤدي طهارته وهي التي تقول: «لم أرد بك سوءا يا محسن، أنت اعتقدت أنّ العالم بياض وأنا نقطة سوداء... نظرت إلي بكثير من الأسئلة، لمست جسدي مفتشا عن أثر غيرك ومسدت على شعري مشفقا على البتر الذي أصاب هويتي، وككل الناس تعتقد أنّك أفضل أو على الأقل أنّك أسلم أردت أن تعرف أنّنا سواسية الجميع يتشابهون الاختلاف فقط في اللباس والمظهر» (بيرير، 2019، صفحة 63)، فما معنى أن تجرح أنوثتها إذا كان ينظر إليها بعين الشك في حين كانت تبحث فقط عن الانتماء.

حتى وإن صوّر لنا الروائي في البداية صور الاعتراف والاحتواء، التي رافقت الأنا الجزائرية وتقبلها للآخر، إلا أنّ هذا لا ينفي وجود ذلك الصراع الخفي، الذي يسكن الأنا وانتماءها القومي وهاجس الرفض لليهودي، فهذا محسن ضعف تماما عند معرفة أصول أمه، واهتزت ثقته بنفسه وبأمه بعد أن كان يرى فيها الوجود، لقد جعل منها سيدة من سيدات العين، بالرغم من محاولة الجواهر هذه الشخصية التي أيقظت غريزة الانتماء القومي عند محسن وفكرة الرفض للآخر العربي واليهود خصوصا وهو الذي كان يعتد بنسبه ويتفاخر بأصله وماله، فكانت تجربته بأنّ الجميع متشابهون والاختلاف فقط في اللباس والمظهر ولا أحد يجزم بنقاء عرقه ودمه. حالة الضياع التي عاشها محسن جعلت من أمه هامشا في حياته وهي تناديه «أجلس أحدثك بقلب الأم وقلب المرأة معا... أنا يهودية أين المشكل؟ هل آذيتك يوما؟ هل آذيت أهلك؟ هل طلبت منكم أن انصروا يهوديا» (بيرير، 2019، صفحة 75) هذا الاستعطاف من الأم لم يثن محسن عن ضياعه بعد أن فقد الأمان إذ يرد عليها «لكنك لا تحتاجين ذلك لقد زرعت دمك اليهودي بدمي..» (بيرير، 2019، صفحة 76) فهو يمقت هذا الأمر ويرفض وجوده وصلته به مما جعله يكرس هذا الإقصاء للآخر مخالفا له في هويته وانتمائه فهو لم يتمكن من المضّيّ قدما، لأنّ هذا الآخر الذي يرفضه هي أمه فكيف له أن يقصّيها من حياته؟ كما صرح قائلا: لقد صار دمه من دمها وأنها من نار. مشهد درامي قدمه صاحب الرواية ليبين الضياع والتمزق، الذي وصل إليها الابن حال علمه بالأصول اليهودية لأمه التي عهدا عربية بنت أهل العين، هذه الحقيقة جعلته يعيش حالة من الاغتراب، وضياع معالم هويته التي أرادها أن تكون نقية صافية جزائرية لا تقبل الاختلاط.

لقد كان مفهوم الهوية من المفاهيم التي أسس عليها "بيرير" هذه الثنائية التي تتراوح بين الاعتراف والإقصاء إذ أنّها -أي- «الهوية تحقق شعورا غريزيا بالانتماء إلى الجماعة والتماهي بها...فتبداًل معها الاعتراف» (حمود، 2013، صفحة 15) هذا الشعور الذي يعيشه أجد الفلسطيني الذي يرى نفسه جزائرياً ويرفض العنصر الفلسطيني و الانتماء له و«اختار أن تكون أمه وطناً بديلاً حتى تزوج وصار متعدد الجنسيات» (بيرير، 2019، صفحة 135) فلم يكن يريد الحديث عن هويته الفلسطينية، إذ من الغريب أن تجد ذاتاً جزائرية ترفض ذاتاً مثلها ولم يذكر يوماً أجد أنّه فلسطيني، بل رفض الاتصال بالطلبة الفلسطينيين في الجامعة، وتنكر لهم ولأصوله الفلسطينية وكان يمتق الخوض في الأصول والانتساب، لأنّ الحديث عن هويته يعد جرحاً غائراً بالنسبة له، وهو الذي يحمل دماً يهودياً في عروقه . وهو الذي كان يرى في اليهود لصوصاً أخذوا بيت جده في فلسطين. نلمس في هذه الشخصية صورة الذات العربية التي تقصي الآخر اليهودي وترفض وجوده وترفض أيضاً انتماءها إليه، حتى أنّ أبو إسماعيل بقي بلا هوية ومات ودفن بلا هوية وبلا وطن بعيداً عن العين الذي احتضنته يوماً قبل أن يسافر أملاً في أن يحرر وطنه فلسطين، فهي فضاء مثل الهوية والوطن والجغرافيا والتاريخ لمن لا تاريخ له، فضاء شكله الروائي ليهشم المهمش والمقصي والمنبوذ والضائع.

بعد الخوض في ثنائية الاعتراف والإقصاء من خلال هذه السردية التي اهتمت بمساءلة الذات والوجود، يمكن القول بأن الروائي قدم لنا فضاءً ثالثاً موازياً لهذه الثنائية تمثل في شخصية الوهلي فهو الذي «لا يعترف بالهويات لا يسأل الناس من أين وإلى أين ولا يهتم بالدم الذي يجري في العروق وحده يعتقد أن الإنسان بروحه وقلبه» (بيرير، 2019، صفحة 77) وكأنه مثلاً لتلك الإنسانية التي ترفض الانتماءات الضيقة بل جمع كل المختلفات في كوخه البسيط كما جمع طيور من بقاع عدة، عاش تحت مظلة الحب والعشق والحياة بعيداً عن الصراع بين الأنا والآخر والانتماء والعرق. هذه الاختلافات التي جمعها الوهلي وحاول الوصل بينها ومنحها مساحة للحرية فكانت رواية "منبوذو العصافير" ملحمة للحب و الاعتراف والتعايش.

الخاتمة:

حملت رواية "منبوذو العصافير" لإسماعيل بيرير الكثير من معاني الحب والتقدير والاحترام للذات والآخر وهو ما كان واضحاً من خلال هذه اللوحة السردية ، التي قدمها الروائي مركزاً بؤراً اهتمامه على ثنائية الاعتراف والإقصاء ، التي كان يحاول من خلالها مساءلة الذات والوجود وكمية الاحتواء ، التي قدمته الذوات للآخر حتى يحقق وجوده في فضاء العين الذي جعل منه ملحمة للحب والانتماء . وهو فضاء سردي افتراضي جمع هويات متعددة تعلقّت بفضاء العين مجسدة مبدأ الأرض لمن ارتبط بها وأحبها فتكون وطنه.

هذا الوطن الصغير جغرافياً الكبير بقلوب ساكنيه يؤكد من خلاله إسماعيل بيرير أن العلاقة بين الأنا والآخر ليست وليدة اللحظة الراهنة إنما هي علاقة أزلية . هذه العلاقة تميزها تلك الحدود التي ترسمها الذوات نحو الآخر المختلفة عنه . فتكون في بعض الأحيان رافضة اندماجه فتسعى إلى تهميشه وإقصائه و تنفيه وجوده في حضورها هي وبذلك لا وجود له في فضاءها الثقافي والاجتماعي.

مراجع البحث:

1. أحلام بن الشيخ. (07, 2018). الواقعية و صناعة رواية المهمش في المنظور الاجتماعي و النقدي. مجلة مقاليد(14)، 29.
2. اسماعيل بيرير. (2019). منبذو العصفير . الأبيار ، الجزائر: حبر للنشر .
3. الزاوي بغورة. (2012). الاعتراف من أجل مفهوم جديد للعدل دراسة في الفلسفة الاجتماعية (الإصدار 1). بيروت : دار الطليعة للطباعة و النشر .
4. خالد اليعقوبي، و خالد الطحطاح . (2019). التاريخ من الأسفل (الإصدار 1). القاهرة ، مصر : رؤية للنشر و التوزيع .
5. سعاد العنزي. (30, 10, 2013). المهمشون في الآداب . مجلة ثقافات .
6. عمر الزعفروري. (بلا تاريخ). التهميش و المهمشون في المدينة العربية المعاصرة . عالم الفكر (4)، 36.
7. كمال بولمنير. (2010). النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر الى هونيت (الإصدار 1). الجزائر، الجزائر: منشورات الاختلاف .
8. ماجدة حمود. (2013). اشكالية الأنا و الآخر نماذج روائية عربية . عالم المعرفة .
9. محسن جاسم المسوي. (1988). الرواية العربية النشأة و التحول. القاهرة ، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
10. مُجّد دلوش، و عبد الله عبد اللاوي . (16, 06, 2022). جدلية الاعتراف المتبادل بين الذات و الآخر عند بول ريكول. مجلة الدراسات الانسانية و الاجتماعية، 28.
11. مُجّد راتب الحلاق. (1997). نحن و الآخر دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث و المعاصر . دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.